

البحث الصوتي عند ابن جني على ضوء الدراسات الحديثة

أ. زبيدة حنون

جامعة عنابة

المقدمة

عرف البحث الصوتي عند العرب تطورا كبيرا منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه إلى غاية عصر ابن جني. فبعدما ألف الخليل "كتاب العين"، الذي كان أول معجم صوتي عربي، جاء سيبويه وألف "الكتاب" خصص فيه فصلا للدراسة الصوتية، وهو الفصل الأخير الذي سماه "باب الإدغام" ذكر فيه عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها ...، وعرف الإدغام وأقسامه... وتأثر بسيبويه كل من جاء بعده من النحويين واللغويين، وأخذوا بآرائه في الأصوات دون أن يزيدوا عليه الكثير، وذلك حتى القرن الرابع الهجري، حيث جاء ابن جني وألف أول كتاب مستقل في الأصوات، هو "سر صناعة الإعراب".

ونظرا إلى ما قدمه هذا اللغوي في مجال الدراسة الصوتية من تأليف كتاب مختص في الأصوات، ثم تقديم دراسة شبه كاملة للموضوعات التي تعد الآن مجال البحث الصوتي الحديث: من دراسة الأصوات اللغوية

ومخارجها وصفاتها، ودراسة الحركات اللغوية، ودراسة التغيرات الصوتية، رأيت أن أقدم في العدد من مجلة اللغة العربية القراء موضوعا يتناول مجهودات ابن جني العلمية في مجال الأصوات، تقديرا لعمله الرائد بالنسبة إلى زمانه، وربطاً لماضينا اللغوي بالحاضر.

وسأنتبع ما جاء به ابن جني موضوعا موضوعا، وفق المنهج الحديث المعتمد في تقديم درس اللغوي.

1. طبيعة الصوت اللغوي عند ابن جني

يقول ابن جني في تعريف للصوت: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والقم والشفنتين مقاطع تُثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا. وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها...»¹.

من خلال هذا التعريف يريد ابن جني أن يوضح كيفية صدور الأصوات اللغوية واختلافها باختلاف مخارجها؛ ولمزيد من التوضيح يأتي بالتشبيهين التاليين:

أ - يشبه الحلق والقم آلة الناي، فيقول: "فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، ورواح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قُطع الصوت في الحلق والقم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة"².

¹ . ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وأصحابه، البابي الحلبي، القاهرة 1954، ج.1، ص.06.

² المصدر نفسه، ص.09.

ب- ثم يشبه صدور الأصوات مرة ثانية بوتر العود، حيث يقول: "فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل، سمعت له صوتا، فإن حسر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه غفلا غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصورا أملس مهتزا، ويختلف بقدر قوة الوتر وصلابته، وضعفه ورخاوته. فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضرب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق، وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا...¹".

وهكذا، يشبه ابن جني الحلق بالوتر والخفقة والاهتزاز بالمضرب على الوتر كأول الصوت في أقصى الحلق، وجريان الصوت في الوتر عندما يكون غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة. أما الضغط والحصر بالأصابع الذي يعترض جريان الصوت في الناي فهو كالاعتراض الذي يحدث للصوت في مخارج الحروف من المقطع. فيبدو تكوين الصوت اللغوي عند ابن جني كتكوين الأصوات في الناي والعود، بحيث يصدر الصوت اللغوي بتحريك الهواء في اتجاه واحد خلال ممرٍ مغلق، فتحدث في طريق خروجه وقفات واعتراضات في مواضع مختلفة (كالحلق والفم...) تتسبب في حدوث أصوات متنوعة.

ويتضح مما سبق أن ابن جني عرف عملية حدوث الأصوات اللغوية وحاول تجسيم تلك العملية بالتشبيهين السابقين—ن.

¹ . المصدر نفسه، ص. 09-10.

ثم ينتقل ابن جني إلى تقديم الفرق بين مصطلحي الصوت والحرف، فيرى أن الصوت « عام غير مختص، يقال سمعت صوت الرجل، وصوت الحمار...¹، أي أن الصوت لا يخص فئة معينة من الكائنات دون غيرها، بينما يخص الحرف الأصوات البشرية وحدها.

ثم يعطينا تحليلاً كاملاً لاشتقاق الصوت والحرف، ولكن الطابع الصرفي لا الصوتي قد وسم ذلك التحليل، فهو يبحث في أصل الكلمتين ويأتي بأمثلة؛ فمصدر الصوت صات الشيء يصوت صوتاً فهو صائت، وصوتٌ تصويتاً فهو مصوّ، أما الحرف فهو مشتق من مادة (ح ر ف) وأينما وقعت هذه المادة في الكلام دلّت على حدّ الشيء وحدته، من ذلك حرف الشيء أي ناحيته... ومن سميت حروف المعجم حروفاً، وذلك أن الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه. ويجوز أن تكون سميت حروفاً لأنها جهات للكلم ونواحٍ كحروف الشيء وجهاته المحدقة به. ومن هذا قيل: فلان يقرأ بحرف أبي عمرو وغيره من القراء، وذلك لأن الحرف حدّ ما بين القراءتين وجهته وناحيته. ويجوز أيضاً أن يكون قولهم "حرف فلان" يراد به حروفه التي يقرأ بها...².

أما المحدثون من اللغويين فقد أفادوا أيضاً من مصطلحي الصوت والحرف. فيعرف تمام حسان الصوت في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" كالتالي: « فالصوت عملية حركية يقوم بها الجهاز النطقي وتصحبها آثار سمعية معينة تأتي من تحريك الهواء فيها بين مصدر إرسال الصوت وهو الجهاز النطقي ومركز استقباله وهو الأذن...³ ». ويعرفه إبراهيم أنيس قائلاً: « هو ككل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى

1. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص. 11.

2. المصدر نفسه، ص. 12.

3. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973، ص. 6.

الإنسان. فعند اندفاع النفس من الرئتين يمرّ بالحجرة فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم والأنف، تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن¹. أما الطيب البكوش فيعرف الحرف في كتابه " التصريف العربي"، فيقول: « هو الصوت الذي يحدث عندما يقوم في جهاز التصويت حاجز يعترض النفس ثم يجتاز النفس ذلك الحاجز²». وقرق عبد الرحمن الحاج صالح بين الصوت والحرف، فقال: « والحرف يقابل الصوت في كونه هيئة للصوت يتميز بها عن صوت آخر في المسموع. والحرف شيء مجرد، هو مجموعة تختلف عن الأشياء التي تدخل ضمنها هو مجموعة من العناصر المحسوسة»³.

فالصوت إذن هو ما نسمعه ونحس به نتيجة الاهتزازات التي تحدث خلال العملية الصوتية، أما الحرف فهو الرمز المكتوب للصوت، وهو الوسيلة المستعملة للتعبير عن الصوت. وبمعنى آخر الحرف هو المصطلح المجسم للصوت.

يجب أن نلاحظ هنا أن الغربيين قد استعملوا مصطلح الفونيم Phonème للدلالة على الصوت اللغوي في الدراسات الصوتية الحديثة، حيث يرى هؤلاء العلماء أن الأصوات اللغوية تتكون من وحدات مستقلة، ومن الممكن أن ينطق صوت معين منعزلاً غير مجاور لصوت آخر. وهذه الأصوات المختلفة أو الوحدات الصوتية المستقلة " الواحدة عن الثانية"، والتي يعبر عنها بصوت واحد هي ما يطلق عليه العلماء الغربيون المحدثون مصطلح " الفونيم " أو الوحدة الصوتية المستقلة. فدانيال جونز يعرف الفونيمات كالتالي: هي « عائلة من

1 . إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975، ص 08.

2 . الطيب البكوش، التصريف العربي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1973، ص 34.

3 . عبد الرحمن الحاج صالح، علم الأصوات (مطبوعة لطلاب معهد اللسانيات والصوتيات) الجزائر 1972، ص 02.

الأصوات المترابطة فيما بينها في الصفات في لغة معينة، والتي تستعمل بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كلمة من الكلمات في نفس السياق الذي يقع فيه أي عضو آخر من العائلة¹». ويعرفه دي بوا وزملاؤه كالتالي: «الفونيم هو أصغر وحدة صوتية خالية من أي معنى يمكن تحديده في معنى المنطوق. وتحتوي كل لغة على عدد محدد من الفونيمات (من عشرين إلى خمسين حسب اللغة)²».

فالفونيم إذن هو أصغر وحدة صوتية دون معنى، ولقد أخذ البعض من اللغويين العرب المحدثين هذه النظرية عن الغربيين. يقول كمال بشر في كتابه "دراسات في علم اللغة العام": «هي وحدة صوتية قادرة على التفريق بين معاني الكلمات³»، وليست حدثا صوتيا منطوقا بالفعل في سياق محدد. أما رشاد الحمزاوي، فيستعمل مصطلح "الصوت" للتعبير عن الفونيم، حيث هو نحت من كلمتي الصوت المميز⁴.

نستنتج، مما سبق ذكره، أن اللغويين العرب المحدثين لم يستقروا على مصطلح واحد في قضية "الصوت والحرف". فبعضهم يسمي الصوت صوتا ورمزه المكتوب حرفا، للفرقة بين الصوت ورمزه، والبعض الآخر يحاول التخلي تماما عن مصطلح الحرف، كي لا يقع في الخلط الذي وقع فيه القدماء، مستعملا مصطلح "الصوت اللغوي" تعبيرا عن مفهوم الفونيم عند الغربيين والحرف عند العرب القدماء، ويستعمل مصطلح الصوت تعبيرا عن الصوت الذي نسمعه.

¹ . Jones(Daniel),The phoneme : its nature and use, Printed by W. Heffer and sons Ltd, Cambridge 1967,p.6.

² . Dubois(Jean) et autre, dictionnaire de linguistique, librairie Larousse, Paris 1973, p.372.

³ . كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات) ج2، دار المعارف القاهرة، 1973، ص.31.

⁴ . رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللغوية الحديثة، حوليات الجامعة التونسية، العدد 14، سنة 1977، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص.90.

كما نلاحظ أن اللغويين المحدثين، رغم التقدم العلمي الذي شهده هذا العصر، لم يختلفوا عن ابن جني في تحديد الصوت اللغوي، إلا في بعض التفاصيل البسيطة التي عرفها المحدثون بعد تطور علم التشريح مع ابن سينا.

2- الجهاز الصوتي عند ابن جني

لم يعطنا ابن جني ولا من سبقه من اللغويين العرب تعريفا واضحا للجهاز الصوتية، ولم يعرف هذا الجهاز بتاتا كجهاز مهم في العملية الصوتية، وذلك نظرا للحالة التي كان عليها الطب آنذاك وتخلف علم التشريح، ف جاء الحديث عن هذا الجهاز أثناء دراسة المخارج ودراسة صفات الحروف، ولذلك كان الكلام عن هذا الجهاز عضوا عضوا، الواحد مستقل عن الآخر، وكأن تلك الأعضاء مستقلة تماما بعضها عن بعض، ولا ترابط أو تعاون بينها. ومن خلال التفاصيل التي أتى بها ابن جني في كلامه عن الصوت والنطق، وعن مميزات الحروف وترتيبها، نستطيع أن نعرف الأعضاء التي تدخل في الجهاز الصوتي عنده، وهي: الصدر، والحلق، والفم، والشفتان، والخياشيم...

أما الصدر، وهو " أصل النفس"¹، وضروري لإنتاج الصوت، وهو النقطة التي يبدأ منها الصوت خروجه مستطيلا متصلا. وبالصدر يقصد ابن جني الرئتين وما يحيط بهما. ونلاحظ أنه لا يوجد في الصدر أي مخرج من مخارج الحروف، وقد يكون ذلك هو السبب في ضالة اهتمام ابن جني بهذا العضو.

أما الحلق فيدخل مباشرة في العملية الصوتية، ويذكره ابن جني عند الكلام عن الفرق بين الصوت والحرف، فيقول: « ... حتى يعرض له في الحلق ... مقاطع تشبه عن امتداده...² ». ثم يذكره حين يتحدث عن المخارج، حيث يقسم الحلق إلى ثلاثة أقسام: أقصى الحلق، ووسطه، وأدناه³.

1. ابن جني، سر صنائع الإعراب، ص. 9.

2. المصدر نفسه، ج 1، ص. 6.

3. المصدر نفسه، ج 1، ص. 52.

وأما الفم، فيتكون من عناصر ثلاثة:

أ- اللسان وشارك في العملية الصوتية بأقصاه، ووسطه وطرفه. يقول ابن جني: « ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف... ومن وسط اللسان مخرج الجيم والشين والياء... ومن طرف اللسان... مخرج النون.¹ » .

ب- الحنك الأعلى، ويشارك في العملية الصوتية، كالتالي: « ومن وسط اللسان، وبينه وبين وسط الحنك الأعلى، مخرج الجيم والشين والياء² ».

ج - الأسنان، تنقسم إلى أقسام: الثنايا، الرباعيات والأنياب والضاحك، وتدخل كلها في عملية التصويت، كما تدخل في عملية التصويت أصول الثنايا وأطرافها³.

وأما الشفتان فتلعبان دورا هاما في العملية الصوتية: إما الاثنتان معا وإما السفلى بمفردها⁴.

وأما الخياشيم، فقد حظيت عند ابن جني باهتمام كبير، حيث إنها مخرج من مخارج الحروف: مخرج النون الخفيفة أو الساكنة أو " الغنة"⁵.

وبناء على ما سبق ذكره، وبالرغم من عدم معرفة القدماء للجهاز الصوتي المتكامل، فإن ابن جني استطاع أن يقدم بدقته أهم الأعضاء المكونة للجهاز الصوتي ويعرف دورها في عملية التصويت.

1 . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.52.

2 . المصدر نفسه، ج1، ص.52.

3 . المصدر نفسه، ج1، ص.52.

4 . المصدر نفسه، ج1، ص.53.

5 . المصدر نفسه، ج1، ص.53.

3. الحروف العربية

لقد سار ابن جنى على نهج سيوبه ومن اتبعه من اللغويين في تقسيم الحروف العربية إلى أصول وفروع، يقول ابن جنى: « اعلم أن أصول حروف المعجم عند الكافة تسعة وعشرون حرفاً. فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور من ترتيب حروف المعجم¹». ويرتب ابن جنى الحروف الأصول حسب المخارج على النحو التالي: الهمزة، والألف، الهاء، والعين، والحاء، والغين، والحاء، والقاف، والجيم، والشين، والياء، والصاد، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والطاء، والذال، والتاء، والفاء، والباء، والميم، والواو². ثم يضيف إلى هذه الأصول الفروع التالية: « واعلم أن هذه الحروف التسعة والعشرين قد تلحقها ستة أحرف تتفرع عنها، حتى تكون خمسة وثلاثين حرفاً. وهذه الستة حسنة يؤخذ بها في القرآن، وفصيح الكلام، وهي النون الخفيفة، ويقال الخفية، والهمزة المخففة، وألف التخميم، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي. وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف وهي فروع غير مستحسنة، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف³، والجيم التي كالشين، والصاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والطاء التي كالتاء، والباء التي كالميم، ولا يصح أمر هذه الحروف الأربعة عشر اللاحقة للتسعة والعشرين، حتى كملتها ثلاثة وأربعين، إلا بالسمع والمشافهة⁴»

1 . المصدر نفسه، ج1، ص.26.

2 . المصدر نفسه، ج1، ص.50.

3 . أشار عبد الصبور شاهين إلى أن هذين الصوتين لهما وصفان يدلان على صوت واحد. التطور اللغوي، مكتبة دار العلوم، ط1، القاهرة، 1975، ص.220.

4 . ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.51.

ونذكر هنا أن ابن جنى انتبه إلى الفرق - الذي جاء به في تصنيف الحروف العربية حسب مخارج الحروف - بين الخليل وسيبويه، فيؤكد أن الترتيب الصحيح للحروف على " مذاقها وتصعدها"¹ هو الذي جاء به سيبويه، لأن الترتيب في كتاب العين فيه " خطل واضطراب ومخالفة لما قدمناه أنفا مما رتبته سيبويه"².

ونؤكد مرة ثانية أن القدماء سبقوا عصرهم في كونهم استعملوا وسائل "بدائية" مرئية فقط، مكنتهم من تقديم تصنيف دقيق للحروف حسب المخارج، بالرغم من أنهم لم يعرفوا الجهاز الصوتي المتكامل والمخابر الصوتية ... كما انتبهوا إلى تقديم الحروف الفروع كصور صوتية لتغيرات جاء بعضها في لهجات القبائل العربية، وبعضها الآخر ظهر مع الموالي والأعاجم عند اعتناقهم الإسلام واختلاطهم بالعرب، ويرجع أصل هذه الحروف - كما يقول القدماء - إلى الحروف العربية التسعة والعشرين.

4. مخارج الحروف

بدأ ابن جنى الكلام عن مخارج الحروف وعددها دون تحديد مصطلح المخرج أو تعريفه على نحو ما فعل سيبويه، فقال: « اعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر³». ثم يشرع في وصف المخارج، مثلما وصفها سيبويه، ويثني على هذا الأخير ويشكره على التقسيم القيم الذي أتى به أثناء تقسيمه للمخارج. ويؤخذ كل من خالف هذا التقسيم مثل الأخفش الذي ذهب إلى أن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها.

1 . المصدر نفسه، ج1، ص.50.

2 . المصدر نفسه، ج1، ص.50.

3 . ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.52.

ويقسم ابن جنى مخارج الحلق إلى ثلاثة:

أ- أقصى الحلق، ومنه مخرج الهمزة والألف والهاء.

ب- وسط الحلق، ومنه مخرج العين والحاء.

ج- أدنى الحلق، ومنه مخرج الغين والحاء.

ثم يعطينا سبعة مخارج تتدرج من اللسان على الشكل الآتي:

أ- من أقصى اللسان مخرج القاف.

ب- من أسفل من ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف.

ج- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.

د- من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.

هـ- من حافة اللسان وما أدناها إلى منتهى طرف اللسان مما فوق الضاحك والنايب والرباعية والثنية مخرج اللام.

و- من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

ز- من ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

ويذكر بعد ذلك ثلاثة مخارج بين اللسان والثنايا:

أ- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والذال والطاء.

ب- مما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين.

ج- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والطاء.

ويذكر مخرجا واحدا من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، وهو

مخرج الفاء، وكذلك مخرجا واحدا من بين الشفتين وهو مخرج الميم والواو والباء.

ثم الخياشيم، مخرج النون الخفيفة أو الخفية.

وهكذا نستطيع أن نقول إن ابن جنى قدم مخارج الحروف الأصول التسعة

والعشرين على النمط الذي أتى به سيبويه والذين سبقوه بصفة عامة،

لكنه اجتهد أكثر وأضاف إلى هذا الترتيب لمخارج الحروف الأصلية، ترتيب مخارج الحروف الفرعية المستحسنة، لأنه اعتبرها تغيرات صوتية حقيقية في اللهجات العربية قبل الفتوحات الإسلامية...

كما نستطيع القول مرة أخرى إن ما جاء به العرب القدماء عامة وابن جني خاصة بالنسبة إلى المخارج دقيق وصحيح، رغم عدم وجود وسائل علمية آنذاك تساعد علماء اللغة في أبحاثهم. كما أن الدراسات الحديثة لم تقم سوى بإحياء هذه المادة التراثية حسب المناهج الحديثة.

5. صفات الحروف

استعمل ابن جني عبارة أقسام الحروف للتعبير عن صفات الحروف، فتحدث عن الشدة، والرخاوة، والجهر، والهمس، والإطباق، والانفتاح... كما قسم هذه الصفات إلى صفات عامة، تخص كل حروف المعجم، وصفات خاصة تخص حرفاً أو حرفين، وسماها "مصطلحات أخرى".

أ- الصفات العامة

1- الجهر والهمس

يقول ابن جني: « فمن ذلك انقسامها إلى الجهر والهمس، وهي على ضربين: مجهور ومهموس. فالمهموسة عشرة أحرف، وهي: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والصاد، والتاء، والسين، والثاء، والفاء، ويجمعها لفظك "ستشحتك خصة"، وباقي الحروف وهي تسعة عشر حرفاً، مجهوراً¹...».

نلاحظ أن ابن جني يتكلم عن الجهر والهمس، ويعد المهموس ويذكره حرفاً حرفاً. وينتقل بعد ذلك إلى تعريف المجهور والمهموس، معتمداً بشكـل

¹ . المصدر السابق، ج1، ص38.

شبه كلّي على تعريف سيبويه للصفتين، فيقول: « فمعنى المجهور: أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، غير أن الميم والنون من جملة المجهورة قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم، فتصير فيهما غنة، فهذه صفة المجهور¹».

ولا يعد الحروف ولا يذكرها، بل يكتفي بذكر الميم والنون منها، حيث يتعرض للغنة. ثم يعرف المهموس فيقول: « وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس، وأنت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جري الصوت، نحو: سسس كككك هههه ولو تكلفت مثل ذلك في المجهور لما أمكنتك²».

نلاحظ أن ابن جني مثل سيبويه لم يتمكن من تحديد الجهر والهمس تحديداً دقيقاً، ومرّد ذلك إلى جهلها - الطبيعي آنذاك - بدور الوترين الصوتيين في العملية الصوتية. وبقي الغموض محيطاً بالجهر والهمس حتى جاء ابن سينا وشرّح الحنجرة واللسان، فأدرك اللغويون أن وضع الوترين الصوتيين هو الذي يحدد الصفات، ومنها الجهر والهمس.

2. الشدة والرخاوة

يذكر ابن جني بعد ذلك انقساماً آخر للحروف، هو الشدة والرخاوة وما بينهما. فيعد الحروف الشديدة ثمانية، وهي: الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء والدال، والتاء، والباء، « ويجمعها في اللفظ قولك: " أجدت طبقك، أو أجدك طبقت³». ثم يضيف: « والحروف التي بين الشدة والرخاوة ثمانية أيضاً، وهي الألف، والعين، والياء، واللام، والنون، والراء، والميم، والواو، ويجمعها في اللفظ قولك: _____».

1 . المصدر نفسه، ج 1، ص 38.

2 . المصدر نفسه، ج 1، ص 69.

3 . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 1، ص 69.

" لم يروّعنا" وإن شئت قلت "لم يروعونا"، وما سوى هذه الحروف والتي قبلها هي الرخوة¹».

فما سبق، نستطيع أن نرجع إلى تعليقنا السابق، حيث إن الغموض الذي ميز تعريف ابن جن والقدماء عامة عند ذكر الصفات راجع إلى عدم معرفتهم للوترين الصوتيين ودورهما في تحديد صفات الأصوات اللغوية.

3. مصطلحات أخرى

أ- **الإطباق أو الانفتاح**: يذكر ابن جني الحروف المطبقة، وهي: الضاد والطاء والصاد والظاء، ثم يعرف الإطباق كما عرفه سيبويه، وهو « أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له²». ويضيف الأمثلة نفسها التي جاء بها سيبويه، فيرى أنه لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والطاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام... وأن هذه الحروف محصورة، « فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف³». ويرى أن ما سوى حروف الإطباق الأربعة " مفتوح غير مطبق"، ولم يفسر أو يشرح أو يشرح معنى الانفتاح.

ويبقى تعريف الإطباق والانفتاح في البحث الصوتي تقريبا على هذا النحو، ولم يأت المحدثون بالشيء الكثير، ولم تتعدى إضافاتهم بعض التفاصيل العلمية البسيطة التي وفرها التقدم العلمي بصفة عامة.

ب- **الاستعلاء والانخفاض**: يذكر ابن جني الحروف المستعلية، « وهي: الخاء، والغين، والقاف، والضاد، والطاء، والصاد، والظاء، وما عدا هذه الحروف فمخفض. ومعنى الاستعلاء أن تتصعد في الحنك

1 . المصدر نفسه، ج 1، ص. 69.

2 . المصدر نفسه، ج 1، ص. 70.

3 . سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بيروت 1982، ج 1، ص. 406.

الأعلى، فأربعة منها فيها مع الاستعلاء إطباق، وقد ذكرناها، أما الخاء والغين والقف فلا إطباق فيها مع استعلائها¹».

نلاحظ هنا أن ابن جني انتبه إلى الصلة الموجودة بين الإطباق والاستعلاء وأكدها مع ذكره للحروف التي تتصف بالاستعلاء والإطباق، كما هو الحال في الضاد، والطاء، والصاد، والظاء.

أما الحروف المنخفضة، فلم يضع لها تعريفاً، وإنما اكتفى بالقول إن المنخفضة هي ما عدا الحروف المستعلية السبعة.

ج- الصحيح والمعتل: يرى ابن جني أن جميع الحروف العربية صحيحة ما عدا الألف والياء والواو اللواتي هن حروف المد والاستطالة، ويصرح بأن الألف أشد امتداداً وأوسع مخرجاً، وهو الحرف الهاوي². ويستعمل الطيب البكوش - وهو من المحدثين - مصطلح الإعلال عند الكلام على حروف العلة، ويرى أن عبارة "حروف العلة" تقليدية ولا يضيف شيئاً جديداً³.

د- المنحرف: وهو الحرف الذي ينحرف فيه اللسان عند النطق مع الصوت «لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضها على الصوت، فيخرج الصوت من تينك الناحيتين ومما فوقهما، وهو اللام⁴».

وفي العربية حرف منحرف واحد، وقد وصفه ابن جني وصفاً دقيقاً، وكان سيبويه قد وصفه تقريباً الوصف نفسه، فقال «المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على

¹ . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.72.

² . المصدر نفسه، ج1، ص.72.

³ . الطيب البكوش، التصريف العربي، ص.38.

⁴ . ابن جني، المصدر السابق، ج1، ص.72.

الصوت كاعتراض الحروف الشديدة¹ . أما المنحرف عند المحدثين، فيعرفه عبد الصبور شاهين، ويقول: «إن الصوت يخرج من حافة اللسان حين تتصل بما جاورها من الأسنان والأضراس»².

هـ- المكرر: فقال « وهو الراء، وذلك أنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير³ ». ويعرف المحدثون المكرر التعريف نفسه تقريبا، فيرون أن النطق بالراء يتمثل في عدة نزات وارتعاشات في طرف اللسان⁴.

و- المهتوت: ويقصد ابن جني بالمهتوت حرف الهاء، لما فيه من ضعف وخفاء⁵.

ز- المشرب: ذكر ابن جني حروفا مشربة فقال « تحرف في الوقف، وتضغط عن مواضعها⁶».

ويسميتها حروف القفلة، وهي: القاف، والجيم، والطاء، والذال، والباء. وأدرك أنه لا يمكن الوقوف عليها إلا بصوت لشدة الضغط، مثل: الحق، واذهب، واخلط، واخرج.

ويذكر أيضا حروفا مشربة لكنها لا تضغط ضغط الأولى: وهي الزاي، والطاء والذال، والضاد.

وحروفا مشربة لا تسمع بعدها شيئا مما ذكر من ضغط، وهي: الهمزة، والعين، والغين، واللام، والنون، والميم.

¹ . سيبويه، الكتاب، ج2، ص.406.

² . عبد الصبور شاهين ، الأصوات في قراءة أبي عمرو بن العلاء، ص.19.

³ . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.72.

⁴ . كانتينو، دروس في علم الأصوات، ترجمة د. صالح القرماضي، نشر مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1966، ص.38.

⁵ . ابن جني، المصدر السابق، ج1، ص.74.

⁶ . المصدر نفسه، ج1، ص.73.

ح- حروف الذلاقة والحروف المصمتة: ذكر ابن جنى حروف الذلاقة، وهي ستة: اللام، والراء، والنون، والفاء، والباء، والميم كحروف يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو صدره وطرفه¹. أما المصمّة، وهي باقي الحروف، فسميت مصمّة أي صمت عنها.

وهكذا، بعد دراسة صفات الحروف التي جاء بها ابن جنى، يتضح لنا أنه سلك مسلك سيبويه في تقديمها، وأضاف إلى ذلك تفاصيل وجزئيات في ضبط الصفات وتعليلها، كما تكلم عن صفات لم يذكرها من سبقوه أصلاً، وبهذا يكون قد مهّد السبيل في تلك المواضيع للذين جاؤوا بعده.

6. الحركات

تعد قضية الحركات من أهم الموضوعات التي درسها ابن جنى في مقدمة كتابه "سر صناعة الإعراب"، حيث علل تسمية الحركات "أصواتاً ناقصة" وذكر طبيعتها ودرس مكانها في المرتبة. يقول: فقال « وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات لأنها تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجذب به نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجذب نحو الياء، والضمّة تجذب نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي أبعاضها، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجذب نحو الياء، والضمّة تجذب نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها تكملته الحركات حروفاً، أعني ألفاً وياءً وواواً² » .

يقول إن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فالحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمّة.

¹ . المصدر نفسه، ج 1، ص 74.

² . المصدر السابق، ج 1، ص 30.

وكان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضممة الواو الصغيرة.

فالحركات عند ابن جني أجزاء من حروف المد الثلاثة، والتي يصفها بالحروف التامة، عكس الحركات التي هي أصوات ناقصة. فلولا الألف ما كانت الفتحة، ولولا الياء ما كانت الكسرة، ولولا الواو ما كانت الضمة.

وبما أن كل حركة " بعض" من حروف المد، وأن الحركات وحروف المد من جنس واحد، « فإذا أثبت أن هذه الحركات أبعاض للحروف ومن جنسها¹»، وذلك يعني أن الموضوع موضوع " نطق"، وليس موضوع " كتابة"، وهذه النقطة مهمة جداً، لأن ذلك يعني أن الحركات أصوات مثل سائر أصوات اللغة العربية. وقد أقر ابن جني أن حروف المد ثلاثة توابع للحركات، ومتشعبة عنه وأن الحركات أوائل هذه الحروف وأجزاء منها، ويأتي بتحليل طويل حول ظاهرة الإشباع... وأن الألف فتحة مشبعة والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة.

والإشباع عند ابن جني يعني مطلقاً حركة مطلقاً قد يؤدي بالحركة إلى الحرف التام، حيث تصبح الفتحة ألفاً، والكسرة ياء ساكنة، والضممة واو ساكنة. والنتيجة التي يمكن استخلاصها من الحركات - من الناحية الكمية كما يقول - أوائل لحروف المدّ وبدايات ينشأ عن إشباعها نمو، فتصبح تلك الحروف " كوامل"²...

أما نحن، فنستطيع أن نبين هنا أن إثارة هذه القضايا من قبل ابن جني جعلته يضع الخطوات الأولى لدراسات كبيرة جاءت بعده مع ابن يعيش³، و... حتى العصر الحديث¹.

1. ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، 1952، ج2، ص316.

2. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص27.

3. ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب بيروت ومكتبة المنتبني، القاهرة 1978، ج9، ص64.

وبعد هذا التدقيق في تسمية الحركات وطبيعتها، ينتقل ابن جني إلى دراسة مكان الحركة في المرتبة.

7. مكان الحركة في المرتبة

يرى ابن جني أن هذه القضية سبب مشاكل وأوجه خلاف بين النحاة فيقول: « أما مذهب سيبويه، فإن الحركة تحدث بعد الحرف. وقال غيره: معه. وذهب غيرهما إلى أنها تحدث قبله² ». ثم يحاول أن ينهي هذا الخلاف ويعطي حلا للإشكال، يقول: « واعلم أن الحركة التي يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون في المرتبة قبله، أو معه، أو بعده³ ». فيعطي ثلاث فرضيات تكون واحدة منها على الأقل مكان الحركة وحلا للإشكال، ولذلك يدرس تلك الفرضيات واحدة واحدة.

ففي الحالة الأولى، ينفي ابن جني أن تكون الحركة قبل الحرف نفياً تاماً، يقول: « فمحال أن تكون الحركة في المرتبة قبل الحرف، وذلك أن الحرف كالمحل للحركة، وهي كالعرض فيه، فهي لذلك محتاجة إليه، ولا يجوز وجودها قبل وجوده. وأيضاً لو كانت الحركة قبل الحرف لما جاز الإدغام في الكلام أصلاً، ألا ترى أنك تقول قطع فتدغم الطاء الأولى في الثانية، ولو كانت حركة الطاء الثانية في الرتبة قبلها لكانت حاجزة بين الطاء الأولى وبين الطاء الثانية، ولو كان الأمر كذلك لما جاز إدغام الأولى في الثانية؛ لأن الحركة - على هذه المقدمة - مرتبتها أن تكون قبل الطاء الثانية، بينها وبين الأولى، وإذا حجز بين الحرفين حركة بطل الإدغام، فجواز الإدغام في الكلام دلالة على أن الحركة

1 . فلاش هنري، التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جني، ترجمة عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة العربية، عدد 3 سنة 1968، القاهرة.

2 . ابن جني، الخصائص، ج2، ص.321.

3 . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.32.

ليست قبل الحرف المتحرك بها¹. ينفي ابن جني وجود الحركة قبل الحرف معتمداً على حجتين الأولى وجود الحركة في سلسلة الكلام بعد الحرف، والثانية تعذر الإدغام لو كانت الحركة قبل الحرف. وبقيت بذلك فرضيتان.

أولاً: تكون الحركة مع الحرف

يذكر ابن جني رأي أستاذه أبو علي الفارسي غير أنه يرفضه ويرد على حججه.

ثانياً: الحركة بعد الحرف

أخذ ابن جني بهذه الفرضية، فحشد لها أمثلة وأدلة عديدة للبرهنة على صحتها مثل: وجود الحركة فاصلة بين المثليين أو المتقاربين. ففي المثليين نحو: قَصَصَ وَمَضَّ وَطَلَّلَ، ويرى ابن جني أنه لولا حركة الحرف الأول من هذين المثليين التي تأتي بعده لما فصلنا بينه وبين الحرف الثاني الذي هو مثله، ولوجب إذن الإدغام في الحرفين لعدم وجود حاجز بينهما، ولكن عدم الإدغام وظهور الحرفين المثليين دليل على وجود فاصل يقع بينهما، وهو " الحركة المتأخرة عن الحرف الأول"².

أما في المتقاربين فنحو قولك في " وتد" إذا سَكَّنت التاء بغية الإدغام: " ودّ " كانت الحركة في التاء قبل إسكانها فاصلة بينها وبين الدال. فوجب لذلك الإظهار. لكن لما سَكَّنت التاء بعد سلب كسرتها جاء الإدغام لاجتماع المتقاربين، فأبدلت التاء دالا « فظهور التاء في وَتَدٍ ما دامت مكسورة، وإدغامها إذا سَكَّنت، دلالة على أن الحركة قد كانت بينهما، وإذا كانت بينهما فهي بعد التاء لا محالة³». ثم يعتمد ابن جني قضية الإشباع دليلاً آخر على أن مرتبة الحركة تكون بعد الحرف.

1 . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص. 32.

2 . المصدر نفسه، ج1، ص. 33.

3 . ابن جني، المصدر السابق، ج1، ص. 34.

وخلاصة القول إن الحركات حظيت عند ابن جني باهتمام كبير، حيث لم يكتف بوصفها، وإنما درسها بدقة وأفاض في شرحها من حيث كميتها واستطالتها وامتدادها، ومن حيث إشباعها وتحولها في الحالتين إلى حرف مدّ، وربطها بحروف المد من حيث كونها أوائل وبدايات لتلك الحروف وأبعاض لها، وأجزاء منها. وبذلك نستطيع القول إن ابن جني درس حروف المدّ أيضا وحللها من حيث كان يظن أنه يدرس الحركات، وبذلك كانت له ملاحظات قيمة عما وصف في البحث الحديث حركات قصيرة وحركات طويلة.

ويوضح ما سبق ذكره أن ابن جني أدرك جيدا أهمية الحركات وقيمتها إلى جانب الحروف الأخرى التي استحوذت على اهتمام القدماء..

8. التغيرات الصوتية

درس ابن جني التغيرات الصوتية مثل سابقه أمثال سيبويه، لكنه لم يعالجها في أبواب، وإنما عالجها أثناء دراسته للحروف العربية حرفا حرفا، ممهدا بذلك للدرس الصوتي الحديث. ونستخلص من معالجته التغيرات الصوتية في محورين كبيرين لتغيرات هما:

1- الإبدال والقلب

2- الإدغام والحذف والوقف والوصل.

أما فيما يخص الظاهرة الأولى (الإبدال والقلب) فيعرف ابن جني الإبدال كما عرفه سيبويه، وهو إبدال حرف بحرف آخر من حروف البديل العشرة، وهي: الهمزة، والألف، والحاء، والياء، والواو، والتاء، والدال، والميم، والنون، والجيم. ويضيف إليها حرف الطاء، ثم يعلق قائلا: «ولسنا نريد البديل الذي يحدث مع الإدغام، وإنما نريد البديل في غير الإدغام¹».

1. ابن جني، المصدر نفسه، ج1، ص72.

أما القلب فهو إبدال حرف بأي حرف آخر من الحروف الباقية. والملاحظ أن ابن جني أولى اهتماما كبيرا لظاهرة الإبدال حيث ركز عليها تركيزا كبيرا طوال دراسته للتغيرات الصوتية في الحروف العربية. كما نلاحظ أنه لا يفرق بين القلب والإبدال في أغلب الأحيان، حيث نراه يستعمل مصطلح الإبدال تارة، ومصطلح القلب تارة أخرى¹. وأدرك ابن جني أن علة التغيرات الصوتية هي تلك الصفات المشابهة بين بعض الحروف.

أما المجموعة الثانية من التغيرات الصوتية، من إدغام ووقف وحذف ووصل، فهي ظواهر لم يأت فيها ابن جني بجديد، فاكتمى بالرجوع في أغلب الأحيان إلى آراء سيبويه. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى ظاهرتي الإدغام والحذف لأهميتها في الدرس الصوتي.

فالإدغام هو منطلق الدراسات الصوتية عند النحاة، خاصة عند سيبويه الذي خصص باب الإدغام في كتابه لدراسة الحروف العربية ومخارجها وصفاتها وتغيراتها. والمقصود بالإدغام تجاوز صوتين متماثلين أو متقاربين وفناء أحدهما في الآخر. ويذكر ابن جني قسمين من الإدغام: الأكبر والأصغر. أما الحذف فلغاية منه تخفيف وتسهيل النطق في الاستعمال.

9. الخاتمة

وخلاصة القول إن ابن جني أسهم في تطوير الدرس الصوتي عند العرب بتأليفه أول كتاب مختص في " الأصوات"، وفي التماسه طريقة حدوث الأصوات واستعمال وسائل لمعرفة حدوثها وتوضيحه لم يستعملها سابقوه، فشبه مجرى النفس أثناء النطق بالمزمار، كما شبه مخارج الحروف ومدارجها بفتحات هذا المزمار التي توضع عليها الأصابع أو بوتر العود وأثر الأصابع عليه.

¹ . ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص.281.

كما أسهم في تطوير الدرس الصوتي في مجال الصفات، بتقديم صفات لم نذكرها من سبقوه كالاستعلاء والانخفاض والذلاقة... إلخ.
ويعد ابن جنى كذلك من اللغويين الذين درسوا الحركات باهتمام واضح وبدقة علمية بالنسبة إلى عصره.

المراجع

- 1- أنيس (إبراهيم):
الأصوات اللغوية، ط.5، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975.
- 2- بشر (كمال):
علم اللغة العام (الأصوات) ج2، دار المعارف القاهرة، 1973.
- 3- البكوش (الطيب):
التصريف العربي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1973.
- 4- ابن جنى:
سر صناعة الإعراب، ج1، تحقيق مصطفى السقا وأصحابه، البابي الحلبي، القاهرة 1954.
- 5- حسان (تمام):
اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973.
- 6- الخليل ابن أحمد:
كتاب العين، تحقيق عبد الله درويش، ج1، مطبعة العاني بغداد 1967.
- 7- الحمزاوي (رشاد):
المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 14، سنة 1977، تونس.

8- سيوييه:

الكتاب/ تحقيق عبد السلام هارون، ط.3، دار الكتب العلمية، بيروت
1982.

9- فليش(هنري):

التفكير الصوتي عند العرب، ترجمة عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع
اللغة العربية بالقاهرة، عدد23، سنة 1968.

10- عبد الرحمن الحاج صالح:

علم الأصوات (مطبوعة لطلاب معهد اللسانيات والصوتيات)
الجزائر1972.

11- عبد الصبور شاهين:

الأصوات في قراءة أبي عمرو بن العلاء،

12- كانتينو(جان):

دروس في علم الأصوات، ترجمة د.صالح القرمادي، نشر مركز
الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس1966.

13- ابن يعيش:

شرح المفصل، عالم الكتب بيروت ومكتبة المتنبي، القاهرة 1978.

المراجع باللغة الأجنبية

1- Jones(Daniel), The phoneme:Its nature and
use, Printed by W.Heffor and sons Ltd,
Cambridge 1967,p.6.

2- Dubois (Jean) et autres, dictionnaire de
linguistique, librairie Larousse, Paris 1973.